الْقَلَمُ فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
دِرَاسَةٌ مَوْضُوعِيَّةٌ

إِعْدَادُ:

د. تركي بن سعد بن فهيد الهويمل

الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فإن كلام الله – عز وجل – وحبله المتين، قد اشتمل على الحكم والأحكام، والفوائد والفرائد، والمواعظ والتكليفات، ما لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى.

فاشتغل به المشتغلون تدبراً وتأملاً وفهماً وعلماً، فكاتب في تفسيره، وكاتب في علومه المختلفة المتعلقة به، رغبة في نيل الشرف به تعلماً وتعليماً كل بحسبه وقدرته وطاقته، فلله الحمد والمنة.

وقد لاح لي أثناء قراءة القرآن الكريم ورود لفظة القلم وذكره، ودلالة آيات القلم في القرآن الكريم على عظمة الله وكبريائه وجلاله، وكلماته التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، وكتبت به كلمات تعد الدالة على عظمته وصفاته، وأقسم الله – سبحانه وتعالى – به في سورة من سور القرآن الكريم، وذكره – أيضاً – في معرض الامتنان على الخلق، وأن من كرمه تعالى أن علَّم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم.

فكان هذا مما دفعني للبحث في هذا الموضوع، والكتابة فيه، رغبة في خدمة كتاب الله الكريم، ولما للقلم – أيضًا – من المكانة والمثابة في الكتاب والسنة المطهرة، عقدت العزم – بمشيئة الله تعالى – على الكتابة في هذا

الموضوع تحت عنوان: «القلم في ضوء القرآن الكريم – دراسة موضوعية».

أسأل الله التوفيق والسداد، والهدى والرشاد، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكان من أسباب اختيار هذا الموضوع:

١) بعد البحث والنظر لم أقف على من كتب في هذا الموضوع – حسب اطلاعي–فعقدت العزم على الكتابة فيه، وبيان الفوائد والأحكام المتعلقة به.

٢) بيان دلالات آيات القلم في القرآن الكريم ومن أبرزها الدلالة على عظمته ووحدانيته، وأنه المستحق للعبادة دون غيره.

٣) أن الله – عز وجل – أقسم به في سورة من سور القرآن الكريم.

٤) عظم شأن القلم في أمور الدنيا والدين.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وستة مباحث، وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة: وفيها بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، والمنهج المتبع في إنجازه.

المبحث الأول: آيات ورود القلم في القرآن الكريم، وبيان المراد بها.

المبحث الثاني: تعريف القلم، وبيان تفاوت الأقلام في الرُّتب.

المبحث الثالث: ذكر القلم في القرآن الكريم حين اقترعوا في شأن مريم وكفالتها.

المبحث الرابع: ذكر القلم في القرآن الكريم للدلالة على وحدانية الله وعظمته، وكلماته التامة.

المبحث الخامس: ذكر القلم في القرآن الكريم في معرض القسم به.

المبحث السادس: ذكر القلم في القرآن الكريم من باب الامتنان على الخلق.

الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث.

الفهارس العامة للبحث.

منهج الكتابة في البحث:

أولاً: في منهج كتابة البحث سأقوم بذكر الآيات المتعلقة بالقلم، وبيان المراد بها، ومِنْ ثمَّ التعريف بالقلم، وذكر أقوال أهل العلم في بيان دلالات القلم في القرآن الكريم من خلال كتب التفسير وعلوم القرآن الكريم، وبيان معانيها، مع استنباط الفوائد والأحكام المتعلقة بالقلم من خلال عرض الآيات القرآنية، وذكر المادة العلمية المفيدة المرتبطة بتفسير الآية القرآنية من كتب أهل الفن.

ثانياً: منهج الكتابة.

١) جمع الآيات القرآنية الواردة في ذكر القلم، مع عزو الآيات إلى سورها، وبيان رقم الآية واسم السورة، حسب الرسم العثماني.

٢) تخريج الأحاديث والآثار الواردة في البحث، وإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما أو أحدهما. وإذا كان في غيرهما أذكر تخريجه من كتب السنة التي أوردته – حسب الإمكان–.

٣) التعريف بالأعلام المذكورين، ممن يلزم التعريف بهم في ثنايا البحث.

٤) ذكر أقوال أهل العلم في المراد بالآيات القرآنية الواردة في ذكر القلم، مع ذكر بعض الأحكام والفوائد القرآنية المستنبطة من الآيات.

٥) وضع خاتمة للبحث وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث.

٦) وضع بعض الفهارس العلمية اللازمة للبحث.

أسأل الله التوفيق والإخلاص في القول والعمل، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: آيات ورود القلم في القرآن الكريم، وبيان المراد بها

بعد النظر والتتبع لمفردة «قلم» في القرآن الكريم، فقد ذكرت في القرآن الكريم أربع مرات على اختلاف في ألفاظها، إفراداً، وجمعاً، وهي على النحو الآتي، حسب ترتيب سور القرآن الكريم.

وردت بلفظ الجمع «أقلام» في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٤٤].

ووردت بلفظ الجمع «أقلام» في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة لقمان: ٢٧].

ووردت بلفظ المفرد «قلم» في قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [سورة القلم: ١].

ووردت بلفظ المفرد «قلم» في قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ [سورة العلق: ١– ٤].

وإذا تتبعنا المعنى المراد بالقلم في القرآن الكريم –كما تقدم – في الآيات السابقة، فقد ذكر بعض المفسرين أن القلم يرد في القرآن الكريم على وجهين:

الوجه الأول: القلم، ويراد به الذي يكتبُ به.

الوجه الثاني: القلم، ويراد به القِدْح، وهو السَّهم.

يقول الراغب الأصفهاني[1] (ت٤٢٥هـ) في مفرداته:

«أصل القلم: القصُّ من الشيء الصُّلْب، كالظفْر وكَعْب الرُّمح والقَصَب، ويقال للمقلوم: قَلَم. كما يقال للمنقوض: نَقَض.

وخُصَّ ذلك بما يُكتب به، وبالقِدْحِ الذي يُضربُ به، وجمعه أقلام. قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [سورة لقمان: ٢٧]، وقوله: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ [سورة آل عمران: ٤٤]، أي: أقْداحَهُم، وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [سورة العلق: ٤]، تنبيه لنعمته على الإنسان، بما أفاده من الكتابة»[2].

وفي نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي[3] (ت ٥٩٧هـ) ما نصه:

«القلمُ: يقال ويراد به الذي يُكتبُ به. ويقال: ويراد به القِدْح[4] وهو السَّهم.

وذكر بعض المفسرين أنه في القرآن على هذين الوجهين:

---

(١) هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، الملقب بالراغب، من مؤلفاته: المفردات في ألفاظ القرآن الكريم، ومحاضرات الأدباء، اختلف في سنة وفاته، فقيل توفي في حدود سنة (٤٢٥هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء ١٢٠/١٨، وطبقات المفسرين للدودي ٣٢٩/٢.

(٢) ينظر: المفردات (ص ٦٨٣) (قلم).

(٣) هو أبو الفرج عبدالرحمن بن علي التيمي البغدادي الحنبلي، المعروف بابن الجوزي، علامة عصره، له مصنفات كثيرة، توفي سنة (٥٩٧هـ). ينظر: وفيات الأعيان ١٤٠/٣، سير أعلام النبلاء ٣٦٥/٢١، وذيل طبقات الحنابلة ٣٩٩/١.

(٤) القِدْح بالكسر: السهم قبل أن ينصل ويراش، والقِدْح قِدحُ السهم، وجمعه قِدَاح. ينظر: لسان العرب ٥٥٦/٢ (قدح).

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[سورة القلم: ١]، ومثله: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾[سورة العلق: ٤].

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾ سورة آل عمران: ٤٤]»[(١)].

ويقول الفيروزآبادي[(٢)] (ت٨١٧هـ) في بصائر ذوي التمييز:

القلم: ما يكتب به، والجمع أقلام وقِلام، قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [سورة لقمان: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [سورة العلق: ٣، ٤]، إشارة وتنبيه على ما أنعم الله به على الإنسان من تعليم الكتابة، وما في القلم من الفوائد واللطائف. قال[(٣)]:

وَرواقِـــمٍ رُقْـــشٍ كمِثْـــل أراقِـــمٍ ... قُطُـف الخطـا نيَّالـة أقْصَـى المـدَى

سُـــودِ القـــوائِم لا يجِـــدُّ مَسِـــيرُها ... إلا إذا لَعِبَـــتْ بهـــا بِـــيضُ المُـــدَى

(١) ينظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص ٤٨١، ٤٨٢).

(٢) هو أبو الطاهر محمد بن يعقوب بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي الشافعي، الإمام اللغوي المشهور، له مصنفات عديدة، توفي سنة (٨١٧هـ). ينظر: شذرات الذهب ١٢٦/٧، البدر الطالع ٢٨٠/٢.

(٣) البيت لم أقف على قائله، وأورده الفيروزآبادي في بصائر ذوي التمييز ٢٩٥/٤، والرواقم جمع راقم من الرقم وهو الكتابة، كأنه من الإسناد إلى الآلة. والرقش وهو جمع أرقش وهو المنقط بسواد وبياض، والأراقم: جمع أرقم، وهو من الحيات ما فيه سواد وبياض. وقطف: جمع قطوف، وهو من الدواب البطيء، ونيَّالة مبالغة نائلة، والمدى: جمع مدية، وهي السكين، والبيت يدل على فائدة القلم وتعلم الكتابة.

والقلم – أيضاً –: القِدْح الذي يضرب به، سُمِّي قلماً لأنه كان يُبرى كَبَرْي القلم ثم يقارَع به، قال تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ [سورة آل عمران: ٤٤]، أي، قِداحهم: أزلامهم»[(١)].

وخلاصة القول من خلال – ما تقدم ذكره – أن القلم في القرآن الكريم يطلق ويراد به أحد المعنيين:

الأول: القلم الذي يكتب به، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [سورة لقمان: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١]، وقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [سورة العلق: ٣، ٤].

الثاني: القلم ويراد به القدح وهو السَّهم الذي يُضرب ويُرمى به.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [سورة آل عمران: ٤٤].

وقد وردت في القرآن الكريم بصيغة المفرد، والجمع –كما تقدم – (قلم – أقلام)، وسيأتي المزيد من البيان والتوضيح في التعريف بالقلم في المبحث القادم – إن شاء الله تعالى.

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز ٤/٢٩٤، ٢٩٥.

المبحث الثاني: تعريف القلم، وبيان تفاوت الأقلام في الرتب

جاء في تعريف القلم عند الجوهري[١] (ت٣٩٣هـ) في الصحاح:

«والقَلَمُ الذي يكتب به. والقَلَمُ: الزَلَمُ، والقَلَمُ: الجَلَمُ. والمِقْلَمَةُ: وعاء الأقلام. ومَقالِمُ الرمح: كعوبه»[٢].

وفي مقاييس اللغة:

«(قلم) القاف واللام والميم أصل صحيح يدل على تسوية شيء عند بريه وإصلاحه. من ذلك: قلمت الظفر وقلَّمته، ويقال للضعيف: هو مقلوم الأظفار، والقُلامة: ما يسقط من الظُّفر إذا قلم.

ومن هذا الباب سمي القلم قلماً، قالوا: سمِّي به لأنه يُقلم منه كما يقلم من الظفر، ثم شُبِّه القِدْح به فقيل: قلم...» [٣].

وفي المفردات للراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ):

«أصل القَلْم: القصُّ من الشيء الصلب، كالظفر وكعب الرمح والقصب، ويقال للمقلوم: قلم...» [٤].

---

(١) هو إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، إمام في النحو واللغة والصرف، أخذ عن أبي علي الفارسي، والسيرافي، يضرب بحسن خطه المثل، من مؤلفاته: الصحاح وهو أعظمها، وله كتاب في العروض، توفي سنة (٣٩٣هـ) وقيل غير ذلك. ينظر: إنباه الرواة ٢٢٩/١، وسير أعلام النبلاء ٨٠/١٧، وبغية الوعاة ٤٦٦/١.

(٢) ينظر: الصحاح ٢٠١٤/٥ (قلم).

(٣) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس ١٥/٥، ١٦ (قلم).

(٤) ينظر: المفردات (ص٦٨٣) (قلم).

وفي لسان العرب لابن منظور[1] (ت ٧١١هـ):

«والقَلَمُ: الزَّلَمُ. والقَلَم: السَّهم الذي يجال بين القوم في القمار. وجمعها أقلام. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [سورة آل عمران: ٤٤].

قيل معناه: سهامهم، وقيل: أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة؛ قال الزجاج[2]: الأقلام هاهنا القِداح، وهي قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة.

وإنما قيل للسهم القلم لأنه يُقْلَم أي: يُبْرى،وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قَلَمْته، من ذلك القلم الذي يكتب به، وإنما سُمي قلماً لأنه قُلِمَ مرة بعد مرة، ومن هذا قيل: قلمت أظفاري[3].

وقلمت الشيء بريتُه وفيه عال قلم زكريا؛ هو هاهنا القِدْح والسهم الذي يتقارع به، سمي بذلك لأنه يُبرى كبري القلم. ويقال للمِقْراض: المِقْلام. والقَلَمُ: الجَلَمُ»[4].

---

(١) هو محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن منظور الأنصاري، الأفريقي المصري، جمال الدين، أبو الفضل، من أشهر علماء اللغة العربية، ألف واختصر الكثير من الكتب، توفي سنة(٧١١هـ). ينظر: أعيان العصر ٢٦٩/٥، وشذرات الذهب ٤٩/٨.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، عالم بالنحو اللغة، من أهل الفضل والدين، لزم المبرد، وكان يعلم بالأجرة، من مؤلفاته: معاني القرآن وإعرابه، والأمالي، والاشتقاق، توفي في بغداد سنة (٣١١هـ). ينظر: وفيات الأعيان ٤٥/١، وإنباه الرواة ١٥٩/١، وبغية الوعاة ٤١١/١.

(٣) هنا نهاية نقل ابن منظور في لسان العرب عن الزجاج في معاني القرآن وإعرابه. ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤١٠/١.

(٤) ينظر: لسان العرب ٤٩٠/١٢ (قلم). وينظر للزيادة: مختار الصحاح للرازي (ص ٢٢٩).

وفي المعجم الوسيط:

«القلم جمع (أقلام) القصبة التي تُبْرى ويكتب بها، ولا تسمى قلماً إلا بعد البري»[(١)].

وخلاصة القول في تعريف القلم من خلال ما تقدم ذكره عند أهل اللغة أن أصل القَلَم: القص من الشيء الصلب، ويدل على تسوية شيء عند بريه وإصلاحه.

والمراد به أحد المعنيين:

الأول: القلم الذي يكتب به.

الثاني: السَّهم الذي يضرب به.

فيقال للمقلوم قلم وكلاهما مراد في المعنى المذكور، وخصَّ ذلك بما يكتب به وهو (القلم)، وبما يضرب به وهو القِدْح، أي: السَّهم، والعلم عند الله تعالى.

وبعد ذكر تعريف القلم وبيان قول أهل اللغة في أصله وبيان معانيه، وحالات استعماله وبيان ألفاظه في الآيات القرآنية، الدالة على عظيم شأنه ومكانته وأثره في أمور الدنيا والدين، فقد ذكر ابن القيم – يرحمه الله – حسناً من القول يحسن ذكره في هذا المقام من باب تكميل الفائدة وتمام المعنى في التعريف بالقلم، وبيان تفاوت الأقلام في الدرجة والرُّتب فكتب فصلاً بعنوان: «والأقلام متفاوتة في الرتب» فقال ما ملخصه وفحواه على النحو الآتي ذكره:

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (ص ١٩١) (قلم).

القلم الأول: قلم القدر السابق الذي كتب الله – عز وجل – به مقادير الخلائق وهو أعلاها وأجلها قدراً.

فعن عبادة بن الصامت– رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»(١).

واختلف أهل العلم هل القلم أول المخلوقات أو العرش؟

والظاهر – والعلم عند الله تعالى – أن العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح من حديث عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قدَّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام، وعرشه على الماء»(٢).

فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا.

ولا يخلو قوله: «إن أول ما خلق الله القلم» إلى آخره، إما أن يكون جملة أو جملتين. فإن كان جملة – وهو الصحيح – كان معناه أنه عند أول خلقه، قال له: اكتب، كما في لفظ: «أول ما خلق الله القلمَ قال له: اكتب» بنصب أول، والقلم، فإن كانا جملتين وهو مروي برفع أولُ والقلمُ، فيتعين حمله

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود، باب القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي في القدر (٢١٥٥)، وفي التفسير رقم (٣٣١٩)، وأحمد في المسند ٣١٧/٥ وغيرهم، وله شواهد أخرى، وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة ٣٤/١.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه في كتب القدر، باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم، رقم (٢٦٥٣).

على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان. إذ حديث عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما – صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «لما خلق الله القلم قال له: اكتب.

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها.

وقد قال غير واحد من أهل التفسير أنه القلم الذي أقسم الله به»[(١)].

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (ص ١٨٩، ١٩٠) بتصرف يسير، وينظر للزيادة: شرح العقيدة الطحاوية ٣٤٥/٢، ويقول الشيخ محمد العثيمين – يرحمه الله – عند هذه المسألة، القلم: بالرفع والنصب، وهي مروية بالوجهين.

فعلى رواية (النصب فإن أولَ ما خلق الله القلمَ فقال له اكتب. فقال ربي: وما أكتب)، يكون خبر «إن» محذوفاً، أو: (قال له اكتب)، وتكون الفاء زائدة، ويكون المعنى أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلق له، يعني خَلَقَه ثم أمره أن يكتب، وعلى هذا المعنى لا إشكال فيه، لكن على المعنى الأول الذي هو الرفع يشكل، هل أن أول المخلوقات كلها هو القلم؟ الجواب: لا، لأننا لو قلنا إن القلم أول المخلوقات وأنه أمر بالكتابة عندما خلق لكنا نعلم ابتداء خلق الله للأشياء، وأن أول بدء خلق الله كان قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ونحن نعلم أن الله – عز وجل – خلق أشياء عظيمة وكثيرة قبل هذه المدة بأزمنة لا يعلمها إلا الله – عز وجل – لأن الله – عز وجل – لم يزل ولا يزال خالقاً، وعلى هذا فيكون: إن أول ما خلق الله القلمُ، ويحتاج إلى تأويل ليطابق ما علم بالضرورة من أن الله تعالى له مخلوقات عظيمة قبل هذا الزمن.

قال أهل العلم: وتأويله: أن المعنى: أن أول ما خلق الله القلم مما يتعلق بما نشاهده فقط من المخلوقات كالسموات والأرض... فهي أولية نسبية أي بالنسبة لخلق السموات والأرض، وقد قال ابن القيم في نونيته:

والنـــاس مختلفـــون في القلـــم الـــذي كُتِـــبَ القضـــاء بـــه مـــن الـــديَّان =

القلم الثاني: قلم الوحي: وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله. وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم، وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدم لأقلامهم، وقد رفع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام: فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله – تبارك وتعالى – من الأمور التي يدبّر بها أمر العالم العلوي والسفلي(١).

القلم الثالث: قلم التوقيع: عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهو قلم الفقهاء والمفتين، وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه. فإليه التحاكم في الدماء والأموال، والفروج، والحقوق، وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام. وأقلام العالم خدم لهذا القلم.

القلم الرابع: قلم طب الأبدان: التي تحفظ بها صحتها الموجودة. وتردّ إليها صحتها المفقودة. وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان. وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة.

= هل كان قبل العرش أو هو بعده قولان عند أبي العلا الهمذاني
والحق أن العرش قبل لأنه قبل الكتابة كان ذا أركان

ينظر: القول المفيد على كتاب التوحيد ١٨٣/٣، ١٨٤ بتصرف يسير. وينظر للزيادة: شرح العقيدة الطحاوية ٣٤٥/٢، وكتاب القدر للفريابي (ص ٢٣٦)، والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/١، ١٤.

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (١٩٠) بتصرف يسير، وينظر للزيادة: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ٣٤٦/٢.

القلم الخامس: التوقيع عن الملوك ونوابهم، وسياس الملك: ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام، والمشاركون للملوك في تدبير الدول. فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة، وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

القلم السادس: قلم الحساب: وهو القلم الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق، وهو قلم الكمّ المتصل والمنفصل. الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب. ومبناه على الصدق والعدل، فإذا كذا هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة.

القلم السابع: قلم الحكم: الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة، ويثبت به حق الإنسان وتنقطع به الخصومات، وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص، فهذا له النفوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

القلم الثامن: قلم الشهادة: وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق، وتصان عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره، ويصدق الصادق، ويكذّب الكاذب، ويشهد للمحق بحقه، وعلى المبطل بباطله. وهو الأمين على الدماء، والفروج، والأموال، والأنساب، والحقوق، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد، وباستقامته يستقيم أمر العالم، ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

القلم التاسع: قلم التعبير: وهو كاتب وحي المنام، وتفسيره، وتعبيره، وما أريد منه. وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي، كاشف له، وهو من

الأقلام التي تصلح للدنيا والدين، وهو يعتمد طهارته ونزاهته، وأمانته، وتحريه للصدق، والطرائق الحميدة، والمناهج السديدة، مع علم راسخ، وصفاء باطن، وحسن مؤيد بالنور الإلهي، ومعرفة بأحوال الخلق وهيآتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام، وأعمها جولاناً، وأوسعها تصرفاً، وأشدها تشبثاً بسائر الموجودات: علويها وسفليها، وبالماضي والحال والمستقبل، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه[1].

القلم العاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه: وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال، وينقشه في النفس، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده. فهو قلم المعاد الروحاني، وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك، وتشاهده ببصيرتك.

القلم الحادي عشر: قلم اللغة وتفاصيلها: من شرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها، وأنواع دلالتها على المعاني، وكيفية الدلالة، وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها. وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوّعها.

القلم الثاني عشر: القلم الجامع: وهو قلم الردّ على المبطلين، ورفع سنة المحقين، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم، وتهافتهم، وخروجهم عن الحق، ودخولهم في الباطل، وهذا القلم في

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن الجوزية (١٩٠)، بتصرف يسير.

الأقلام نظير الملوك في الأنام، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم. وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال، وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل، وعدو لكل مخالف للرسل، فهم في شأن، وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن.

فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفي في جلالة القلم ورفيع قدره ومنزلته أنه لم نكتب كتب الله إلا به، وأن الله – سبحانه وتعالى – أقسم به في كتابه، وتعرَّف إلى غيره بأن علَّم بالقلم، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا صلى الله عليه وسلم بواسطة القلم، والحمد لله رب العالمين[1].

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (ص ١٩٠ – ١٩٢) بتصرف.

وفي شرح الطحاوية عند بيان أنواع الأقلام، بعد ذكر قلم القدر، وقلم الوحي، قال الشارح: «والذي دلت عليه السنَّة أن الأقلام أربعة، وهذا التقسيم غير التقسيم المقدَّم ذكره: القلم الأول: العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح.

القلم الثاني: حين خلق آدم عليه السلام، وهو قلم عام أيضاً، لكن لبني آدم، ورد في هذا آيات تدل على أن الله قدَّر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقيب خلق أبيهم.

القلم الثالث: حين يُرسل المَلَك إلى الجنين في بطن أمه، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة.

القلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه، الذي بأيدي الكرام الكاتبين، الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة». ينظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الدمشقي ٣٤٨/٢.

المبحث الثالث: ذكر القلم في القرآن الكريم حين اقترعوا في شأن مريم وكفالتها

ذكر الله – عز وجل – الأقلام في شأن الاقتراع على كفالة مريم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٤٤].

واختلف المفسرون – يرحمهم الله – في المراد بقوله تعالى: (الأقلام) وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ فقال بعضهم:

القول الأول: أنهم تشاجروا عليها وتنازعوا فيها طلباً لكفالتها، فقال زكريا: أنا أحق بها لأن خالتها عندي، وقال القوم: نحن أحق بها لأنها بنت إمامنا وعالمنا، فاقترعوا عليها بإلقاء أقلامهم وهي القداح مستقبلة لجرية الماء، فاستقبلت عصا زكريا لجرية الماء مصعدة، وانحدرت أقلامهم فقرعهم زكريا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾[(١)].

والقول الثاني: أنهم تدافعوا كفالتها؛ لأن زكريا قد كان كفل بها من غير اقتراع، ثم لحقهم أزمة ضعف بها عن حمل مؤونتها، فقال للقوم: ليأخذها أحدكم فتدافعوا كفالتها وتمانعوا فيها، فأقرع بينهم وبين نفسه فخرجت القرعة له[(٢)].

---

(١) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٣٩٣/١ وعزاه إلى ابن عباس – رضي الله عنهما – وعكرمة، والحسن والربيع. وينظر للزيادة: زاد المسير لابن الجوزي ٣٧٩/١، ٣٨٠، والدر المنثور للسيوطي ٥٤٣/٣.

(٢) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٣٩٣/١، وعزاه إلى سعيد، وينظر للزيادة: زاد المسير لابن الجوزي ٣٨٠/١، والدر المنثور للسيوطي ٥٤٣/٣، وفتح القدير للشوكاني ٥٦١/١.

يقول الطبري[١] (ت٣١٠هـ) في تفسيره: «وذلك أنه بلغنا أن زكريا وخصومه في مريم إذ تنازعوا فيها، أيهم تكون عنده، تساهموا بقداحهم، فرموا بها في نهر الأردن، فقال بعضهم: ارتَزَّ[٢] قِدْح زكريا، فقام فلم يجر به الماء، وجرى بقداح الآخرين الماء، فجعل الله ذلك لزكريا عَلَماً أنه أحق المتنازعين فيها بها.

وقال آخرون: بل صعِد قِدحُ زكريا في النهر، وانحدرت قِداح الآخرين مع جريةِ الماء وذهبت، فكان ذلك عَلَماً من الله في أنه أولى القوم بها.

وأيّ الأمرين كان من ذلك، فلا شك أن ذلك كان قضاء من الله بها لزكريا على خصومه بأنه أولاهم بها. وإذا كان ذلك كذلك، فإنما ضمَّها زكريا إلى نفسه بضم الله إياها إليه، بقضائه له بها على خصومه عند تشاحِّهم فيها واختصامهم في أولاهم بها»[٣].

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، الإمام الحافظ، أحد أئمة العلماء، وأحد المجتهدين، له اختيارات فقهية، وله مصنفات تدل على علمه وفضله، توفي سنة (٣١٠هـ). ينظر: تاريخ بغداد ١٦٢/٢، ووفيات الأعيان ١٩١/٤، وتذكرة الحفاظ ٧١٠/٢، وطبقات المفسرين للسيوطي (ص٨٢).

(٢) ارْتَزَّ: من رَزَّ الشيء في الأرض وفي الحائط يرُزُّه رزًّا فارتزّ: أثبته فثبت. ينظر: لسان العرب ٣٥٣/٥) (رزز).

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري ٥٤٦/٥، وينظر للزيادة: البسيط للواحدي ٢٥١/٥، ومعالم التنزيل للبغوي ٣٨/٢، والتفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للرازي ٢٢٠/٨، ومحاسن التأويل للقاسمي ٦٢/٢.

وفي المحرر الوجيز لابن عطية[1] (ت ٥٤٦هـ) عند هذه الآية في شأن مريم وكفالتها:

«وذكر غير واحد من أهل العلم: أنهم كانوا في ذلك الزمان يتشاحون في المحرر عند من يكون من القائمين بأمر المسجد فيتساهمون عليه، وأنهم فعلوا في مريم ذلك، فروي أنهم ألقوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في النهر، وقيل: أقلاماً بروها من عود كالسهام والقداح.

وقيل: عصياً لهم، وهذه كلها تقلم.

وروي أنهم ألقوا ذلك في نهر الأردن.

وروي أنهم ألقوه في عين.

وروي أن قلم زكريا صاعد الجرية، ومضت أقلام الآخرين مع الماء في جريته.

وروي أن أقلام القوم عامت على الماء معروضة كما تفعل العيدان وبقي قلم زكريا مرتكزاً واقفاً كأنما ركز في طين فكفلها عليه السلام بهذا الاستهام...»[2].

فمن خلال ما تقدم من ذكر أقوال المفسرين في المراد بالآية الكريمة يظهر جلياً أن القوم تشاحوا على كفالة مريم، وجمهور العلماء على أنه استهام

---

(١) هو أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عطية المحاربي الأندلسي الغرناطي، فقيه عالم بالتفسير والحديث والنحو، من أشهر مصنفاته: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، توفي سنة (٥٤٦هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء ٥٨٦/١٩، وطبقات المفسرين للسيوطي (ص٥٠)، وطبقات المفسرين للداودي ٢٩٠/١.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٤٢٥/١، ٤٢٦، وينظر للزيادة: كتاب التسهيل لابن جزي ١٠٧/١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٢/٣، والدر المنثور للسيوطي ٥٤٢/٣.

لأخذها والمنافسة عليها فهي بنت إمامهم وحبرهم، والذي عليه الناس أن زكريا إنما كفل بالاستهام لتشاحهم حينئذ فيمن يكفل المحرر، فكفلها الله – عز وجل – زكريا عليه الصلاة والسلام، وكانت غلبته بمصاعدة قلمه أو بوقوفه في جريان الماء.

وأن المراد بالأقلام هي التي يكتبون بها التوراة كانوا يقترعون بها في المشكلات، ومن قال هي أقلام بروها من عود كالسهام والقداح، أو من العصي فله وجه وهذه كلها تقلم؛ ولكن الأقرب – والعلم عند الله – أنها الأقلام التي يكتبون بها التوراة كانوا يقترعون بها في المشكلات.

قال القرطبي[١] (٦٧١هـ) في تفسيره: «﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ جمع قَلَم، من قلَمَه: إذا قطعه. قيل: قداحهم وسهامهم. وقيل: أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة، وهو أجود؛ لأن الأزلام قد نهى الله عنها، فقال: ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [سورة المائدة: ٣]، إلا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التي كانت عليها الجاهلية تفعلها»[٢].

وفي التحرير والتنوير: «وقوله: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ وهي الأقلام التي يكتبون بها التوراة كانوا يقترعون بها في المشكلات: بأن يكتبوا عليها أسماء

(١) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي فرج الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، مصنف التفسير المشهور، إمام متقن متبحر في العلم، توفي سنة (٦٧١هـ)، ينظر: طبقات المفسرين للسيوطي (ص٧٩)، وطبقات المفسرين للداودي ٦٥/٢.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٣١/٥، وهذا القول عند النحاس في إعراب القرآن ٣٧٦/١، وينظر للزيادة: كتاب التسهيل لابن جزي ١٠٨/١، وفتح القدير للشوكاني ٥٦١/١.

المقترعين أو أسماء الأشياء المقترع عليها، والناس يصيرون إلى القرعة عند انعدام ما يرجح الحق، فكان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزلام، وجعل اليهود الاقتراع بالأقلام التي يكتبون بها التوراة في المدارس رجاء أن تكون بركتها مرشدة إلى ما هو الخير...» [1].

فكانت كفالة مريم – عليها السلام – على يد زكريا – عليه الصلاة والسلام – بعد إلقاء الأقلام، وفي الآية الكريمة تنبيه على تنافسهم في كفالتها، وأن القوم تشاحوا في ذلك فكفلها الله – عز وجل – زكريا عليه الصلاة والسلام – بنص القرآن، والحمد لله رب العالمين.

وفي الآية دلالة على أن هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبرهم بها مفصلة محققة، لا زيادة فيها ولا نقصان، وما ذاك إلا إنه وحي من الله العزيز الحكيم، لا بتعلم من الناس، قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٤٤] [2].

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٣/٢٤٥.

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص ١٠٦، ١٠٧) بتصرف يسير.

المبحث الرابع: ذكر القلم في القرآن الكريم للدلالة على وحدانية الله وعظمته، وكلماته التامة

ذكر الله – عز وجل – القلم في القرآن الكريم في موضع آخر من سورة لقمان، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [آية: ٢٧].

وهو في هذه الآية الكريمة يخبر عن عظمته وكبريائه، ووحدانيته، وكلماته التامة التي لا تنفد.

ومناسبة هذه الآية الكريمة لما قبلها أن الله – عز وجل – لما ذكر أن له ما في السموات والأرض في قوله تعالى قبلها في نفس السورة: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [سورة لقمان: ٢٦] أتبعه بما يدل على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عدد ولا يحصر بحدٍّ فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ [سورة لقمان: ٢٧] (١).

والمراد في الآية الكريمة: لو أن شجر الأرض كلها بُريت أقلاماً، والبحر له مداد ومن بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، أي: يكتب كلام الله – عز وجل – بتلك الأقلام، وبذلك المداد، لتكسَّرت تلك الأقلام، ولنفد ذلك

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢٩/٦، ٣٠، وينظر للزيادة: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للرازي ١٢٧/٢٥، ١٢٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٨٩/١٦، وفتح القدير للشوكاني ٣١٩/٤.

المداد، ولم تنفد كلمات الله[1].

ويقول الحافظ ابن كثير[2] (ت٧٧٤هـ) في تفسيره عند هذه الآية الكريمة: «يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[3]. فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [سورة لقمان: ٢٧]، أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً ومدَّه سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً»[4].

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ٥٧١/١٨، وبحر العلوم (تفسير القرآن العظيم) للسمرقندي ٢٦/٣، ٢٧، والكشف والبيان للثعلبي ٣٢١/٧، والبسيط للواحدي ١٢١/١٨، ١٢٢، والمحرر الوجيز لابن عطية ٣٥٣/٤.

(٢) إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء الدمشقي الشافعي، إمام في التفسير والفقه والحديث، له مصنفات كثيرة، توفي سنة (٧٧٤هـ). ينظر: الدرر الكامنة ٣٩٩/١، إنباء الغمر ٤٥/١، طبقات المفسرين للداودي ١١١/١، والبدر الطالع ١٥٣/١.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم الحديث (٤٨٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٧٧/١١، ونقل عن الحسن البصري قوله: «لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مداداً، وقال الله: إن من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ما في البحور، وتكسرت الأقلام». وينظر للزيادة: معالم التنزيل للبغوي ٢٩٢/٦، جامع البيان للطبري ٥٧٢/١٨، والدر المنثور للسيوطي ٦٥٦/١١، ومحاسن التأويل للقاسمي ٤٨٠/٥، وأضواء البيان للشنقيطي ٢٥٢/٤.

وقد اختلف أهل التأويل في سبب نزول الآية الكريمة على قولين:

أحدهما: أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيت قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٥] إيَّانا تريد أم قومك؟ فقال: «كُلاًّ»، فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنَّا قد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شيء؟ فقال: «إنها في علم الله قليل»، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبير (ت٩٥هـ) عن ابن عباس (ت٦٨هـ) – رضي الله عنهما –.

والثاني: أن المشركين قالوا في القرآن: إنما هو كلام يوشك أن ينفد وينقطع، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة (ت١١٧هـ)[(١)].

قال الحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ): «وقد روي أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود، ثم ساق بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: أن أحبار يهود قالوا.... إلخ.

وهكذا روي عن عكرمة(١٠٥هـ)، وعطاء بن يسار (ت٩٤هـ)، وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية لا مكية، والمشهور أنها مكية، والله أعلم»[(٢)].

ومن المعاني والدلالات، واللطائف في هذه الآية الكريمة، أن ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر، ولا أن ثمَّ سبعة أبحر موجودة تحيط

(١) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٣٤٤/٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٣٢٥/٦، والدر المنثور للسيوطي ٦٥٦/١١، وينظر للزيادة: تفسير عبدالرزاق ٨٨/٢، وأسباب النزول للواحدي (ص ٣٦٤)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٨٩/١٦، وكتاب التسهيل لابن جزي ١٢٨/٣، ولباب النقول للسيوطي (ص ٣٦٤).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٧٨/١١، وفتح القدير للشوكاني ٣١٩/٤.

بالعالم، كما يقول من تلقاه من كلام الإسرائيليين التي لا تصدق ولا تكذب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [سورة الكهف: ١٠٩]، فليس المراد بقوله: ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ آخر فقط، بل بمثله، ثم بمثله، ثم بمثله، ثم هلمَّ جرًّا؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته»[(١)].

ويقول الشوكاني[(٢)] (ت ١٢٥٠هـ) في تفسيره عند هذه الآية: «ووحد الشجرة لما تقرر في علم المعاني: أن استغراق المفرد أشمل، فكأنه قال: كل شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد بريت أقلاماً، وجمع الأقلام لقصد التكثير، أي لو أن يعد كل شجرة من الشجر أقلاماً...» [(٣)].

وفي التحرير والتنوير ما ملخصه عند هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة لقمان: ٢٧].

«وقد نظمت هذه الآية بإيجاز بديع إذ ابتدئت بحرف (لو) فعلم أن مضمونها أمر مفروض.

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧٧/١١ بتصرف يسير، وينظر للزيادة: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص٥٩٩)، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٠٢/٢١.

(٢) هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني، أبو عبدالله الصنعاني، من علماء اليمن، له مصنفات كثيرة في التفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة، توفي سنة (١٢٥٠هـ) تقريباً. ينظر: هدية العارفين ٣٦٥/٢، والبدر الطالع (ص٧٣٢)، ومعجم المؤلفين لكحالة ٢١٩/٢، والأعلام للزركلي ٢٩٨/٦.

(٣) ينظر: فتح القدير ٣١٩/٤ بتصرف يسير.

و(من شجرة) بيان لـ (ما) الموصولة وهو في معنى التمييز فحقه الإفراد، ولذلك لم يقل: من أشجار.

والأقلام: جمع قلم وهو العود المشقوق ليرفع به المداد ويكتب به، أي: لو تصير كل شجرة أقلاماً بمقدار ما فيها من أغصان صالحة لذلك، والأقلام هو الجمع الشائع لقلم فيرد للكثرة والقلة»[(١)].

وختم الله – عز وجل – هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تذييل، فهو لعزته لا يغلبه الذين يزعمون عدم الحاجة إلى القرآن الكريم ينتظرون انفحام الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو لحكمته لا تنحصر كلماته لأن الحكمة الحق لا نهاية لها[(٢)].

فهو عزيز قد عز كلَّ شي وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد، ولا مخالف، ولا معقب لحكمه، حكيم في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه وجميع شؤونه[(٣)].

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ١٨٢/٢١ بتصرف.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١٨٣/٢١ بتصرف يسير.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧٨/١١، بتصرف يسير. وينظر للزيادة: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص٥٩٩).

المبحث الخامس: ذكر القلم في القرآن الكريم في معرض القسم به

أقسم سبحانه بالقلم في قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١]، فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي.

وقيّد به الدين. وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم. وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد فوطدت به الممالك. وأمنت به السبل والمسالك. وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه، وأنفعه لهم وأنصحه. وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم. وطبيباً يبرئ بإذنه من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تدبّر الأقاليم وتساس الممالك، والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشي المرقوم، ويودعها حكمه فتصير بوادر الفهوم، والأقلام نظام للأفهام.

وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان، ويولد بالحروف المسموعة عن اللسان، كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت[1].

وقد اختلف أهل التأويل في المراد بالقلم المذكور في قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١] على قولين:

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن (ص ١٨٨)، بتصرف يسير.

الأول: أنه الذي كتب به اللوح المحفوظ، الذي كتب به الذِّكر.

الثاني: أنه الذي يكتب به الناس.

وإنما أقسم به، لأن كتبه إنما تكتب و﴿يَسْطُرُونَ﴾ بمعنى: يكتبون. وفي المشار إليهم قولان:

القول الأول: أنهم الملائكة، وفيما أرادوا بما يكتبونه قولان:

أحدهما: أنه الذكر، قاله مجاهد (ت١٠٤هـ)، والسدي (ت١٢٨هـ).

والثاني: أعمال بني آدم، قاله مقاتل (ت١٥٠هـ).

والقول الثاني: أنهم جميع الكتبة، حكاه الثعلبي (ت٤٢٧هـ) [(١)].

والذي يظهر – والعلم عند الله – أن المراد بالقلم في الآية الكريمة أنه جنس القلم الذي يكتب به، لقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [سورة العلق: ٣، ٤].

فهو قسم منه تعالى، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي تنال بها العلوم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، قال ابن عباس – رضي الله

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ١٤٥/٢٣، والكشف والبيان للثعلبي ٧/١٠، والنكت والعيون للماوردي ٦٠/٦، ٦١، والبسيط للواحدي ٧٢/٢٢، ومعالم التنزيل للبغوي ١٨٧/٨، والكشاف للزمخشري ٥٨٤/٤، والمحرر الوجيز لابن عطية ٣٤٥/٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٤٢٨/٨، ومفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للرازي ٥٩٩/٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣٨/٢١، وكتاب التسهيل لابن جزي ١٣٧/٤، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٣٠٧/٨.

عنهما – (ت٦٨هـ)، ومجاهد (ت١٠٤هـ)، وقتادة (ت١١٧هـ): يعني: وما يكتبون[١].

وخلاصة القول في المراد بعد هذا العرض عند المفسرين، أن المراد بالقلم جنس القلم الذي يكتب به، وقيل: الذي يكتب به الذكر على اللوح المحفوظ.

فإن كان القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ فالضمير في (يسطرون) للملائكة، وإن كان القلم المعروف عند الناس الذي يكتب به – وهو الأظهر – أقسم الله به لما فيه من المنافع والحكم، والضمير في يسطرون على هذا لبني آدم، والعلم عند الله تعالى[٢].

والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة الكريمة[٣] تنزيه نبيه

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨٣/١٤، ٨٤، وهو قول الأكثرين من المفسرين، ورجحه ابن كثير في تفسيره٨٣/٤، بقوله: «والظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به...إلخ».

(٢) ينظر للزيادة: الدر المنثور للسيوطي ٦١٨/١٤، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ١١/٩، وفتح القدير للشوكاني ٣٥٤/٥، والفتوحات الإلهية (حاشية الجمل) ٣٨٤/٤، وروح المعاني للألوسي ٢٣/٣٠، ومحاسن التأويل للقاسمي ١٥٦/٧، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص ٨١٣)، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٦٠/٢٩.

(٣) المراد سورة القلم، وعرفت بهذا الاسم في المصاحف، وكتب التفسير، والسنة، وهو اسمها التوقيفي، ووجه هذه التسمية ذكر لفظ القلم في أولها وإقسام الله – جل وعلا – به، ومن أسمائها الاجتهادية: سورة (ن والقلم)، و(سورة ن)، وعنون لها بعض المفسرين بذلك كالطبري، والزمخشري، والنسفي، والشوكاني، والألوسي وغيرهم، ووردت في بعض المصاحف المخطوطة بهذه الأسماء. ينظر: أسماء سور القرآن للدكتور محمد الشايع (ص١٧٦)، وأسماء سور القرآن وفضائلها، للدكتورة: منيرة الدوسري (ص٤٧٣)، وينظر للزيادة: التحرير والتنوير لابن عاشور ٥٧/٢٩.

ورسوله عما يقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [سورة القلم: ٢]، وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون، ولا تصدر إلا من عقل وافر فكيف ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم... فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة[(١)].

ومن دلالات الآية الكريمة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١] ومعانيها المستفادة منها، عظم شأن القلم وقسم الله – عز وجل – به يدل على مكانته، وبيان منَّة الله تعالى على عباده بتعليمه إياهم.

ومن جلالة القلم أنه لم يُكتب لله تعالى كتاب إلا به، لذلك أقسم الله تعالى به. وقيل: الأقلام مطايا الفطن ورسل الكرام.

وقيل: البيان اثنان، بيان لسان، وبيان بنان، وفضل بيان البنان أنه ما تثبته الأقلام باق على الأيام، وبيان اللسان تدرسه الأعوام[(٢)].

وفي المحرر الوجيز لابن عطية (ت٥٤٦هـ) بعد ذكره لأقوال المفسرين في المراد بالقلم وما يسطرون – كما تقدم – يقول: «فجاء القسم على هذا بمجموع أم الكتاب الذي هو قوام للعلوم والمعارف وأمور الدنيا والآخرة، فإن

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن (ص ١٩٣) بتصرف. وينظر للزيادة: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤٠/٢١، وفتح القدير للشوكاني ٣٥٥/٥، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٦١/٢٩.

(٢) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٧/١٠، بتصرف يسير.

القلم أخ اللسان، ومطية الفطنة، ونعمة من الله عامة»[1].

ويقول القرطبي (ت٦٧١هـ) في جامعه:

«(والقلم) أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان كاللسان؛ وهو واقع على كل قلم مما يكتب به مَنْ في السماء ومَنْ في الأرض، ومنه قول أبي الفتح البُستي:

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم وعَدُّوه مما يُكسِبُ المجد والكرمْ

كفى قلمُ الكتَّابِ عزًّا ورفعةً مَدَى الدهر أنَّ الله أقسمَ بالقَلَم»[2]

ومن فوائد هذا القسم أن هذا القرآن كتاب الإسلام، وأنه سيكون مكتوباً مقروءاً بين المسلمين، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بكتابة ما يوحى إليه. وتعريف (القلم) تعريف الجنس.

فالقسم بالقلم لشرفه بأنه يكتب به القرآن، وكتبت به الكتب المقدسة، وتكتب به كتب التربية، ومكارم الأخلاق، والعلوم وكل ذلك مما له حظ شرف عند الله تعالى.

وأوثر القسم بالقلم والكتابة للإيماء إلى أن باعث الطاعنين على الرسول صلى الله عليه وسلم واللَّامزين له بالجنون، إنما هو ما أتاهم به من الكتاب.

والمقسم عليه نفي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم مجنوناً،

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٣٤٥.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢١/١٣٨، والبيتان في زهر الآداب للقيرواني ١/٣٤٢، وفيه (مجداً) بدل (عزًّا). وأبو الفتح هو علي بن محمد البستي الكاتب، شاعر زمانه، مات سنة (٤٠١هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء ١٧/١٤٧، ١٤٨.

والخطاب له بهذا تسلية له لئلا يحزنه قول المشركين لمَّا دعاهم إلى الإسلام: هو مجنون، وذلك ما شافهوا به النبي صلى الله عليه وسلم، وحكاه عنهم في آخر السورة الكريمة[١].

المبحث السادس: ذكر القلم في القرآن الكريم من باب الامتنان على الخلق

ومن ورود وذكر لفظة القلم في القرآن الكريم ما جاء في باب الامتنان على الخلق بنعمة التعليم بالقلم والكتابة به، في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [سورة القلم: ١ – ٤] وهي من أول[٢] ما نزل من سور القرآن الكريم في بدء الوحي في غار حراء بمكة المكرمة.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢٩/٦٠، ٦١، بتصرف.

(٢) ويدل على أن هذه السورة (سورة العلق) أول ما نزل، الحديث الطويل الثابت في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة – رضي الله عنها – وفيه: «فجاءه الحق وهو في غار حراء فقال له: (اقرأ)...» الحديث. وفي الباب أحاديث وآثار عن جماعة من الصحابة. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق، وأن صدر سورة المدثر كان نزولها بعد فترة الوحي كما هو في الصحيحين – أيضاً – للجمع بين الحديثين – كما تقدم –. وينظر للزيادة: جامع البيان للطبري ٢٤/٥٣٠، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ١/٢٩٤، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/١٥٩، والمدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة (ص١٣)، وأول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن للباحث (بحث محكَّم في مجلة العلوم الشرعية – جامعة الإمام).

فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمة (صدر سور العلق)، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [سورة العلق:٣ – ٥] (١).

والمراد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ أي: علم الكاتب أن يكتب بالقلم، فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب.

وفي معاني القرآن: علم الإنسان الكتابة بالقلم(٢).

ويقول الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) في تفسيره:

«القلم نعمة من الله – عز وجل – عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه بأنه علَّم عباده ما لم يعلمون، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم. ونبه على فضل علم الكتاب لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلاهو.

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٩٨/١٤ بتصرف يسير.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٤٥/٥، وينظر للزيادة: معاني القرآن للفراء ٢٧٨/٣، جامع البيان للطبري ٥٣٢/٢٤، والكشف والبيان للثعلبي ٢٤٥/١٠، والبسيط للواحدي ١٦٩/٢٤، وزاد المسير لابن الجوزي ١٧٥/٩، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥٠٣/٥، ومفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للرازي ٢١٨/٢.

وما دونت العلوم، ولا قيدت الحِكَم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة، إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين، ولا أمور الدنيا»[1].

قلت: وبعد هذا تُعرف نعمة الله – عز وجل – وتظهر منته على خلقه في تعليمهم بالقلم، فهو سبحانه وتعالى الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم.

واختلف أهل التأويل فيمن علمه بالقلم على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه أراد آدم عليه السلام، لأنه أول من كتب، قاله كعب الأحبار(ت٣٢هـ).

الثاني: إدريس عليه السلام، وهو أول من كتب، قاله الضحاك(ت١٠٥هـ).

الثالث: أنه أراد كل من كتب بالقلم، لأنه ما علم إلا بتعليم الله له، وجمع بذلك بين نعمته تعالى عليه في خلقه، وبين نعمته تعالى عليه في تعليمه، استكمالاً للنعمة عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وجهان:

أحدهما: الخط بالقلم، قاله قتادة (ت١١٧هـ)، وابن زيد (ت١٨٢هـ).

الثاني: علمه كل صنعة علمها فتعلم، قاله ابن شجرة (ت٣٥٠هـ).

واختلف في المراد بالإنسان على قولين:

الأول: هو آدم عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: ٣١].

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني ٦٢٨/٥ بتصرف.

الثاني: هو محمد صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[سورة النساء: ١١٣] (١).

والذي يظهر – والعلم عند الله تعالى – العموم فيمن علمه الله – عز وجل – القلم، وأن يحمل الإنسان على العموم.

والمعنى: أن من علمه الله – سبحانه وتعالى – من هذا الجنس بواسطة القلم، فقد علمه ما لم يعلم(٢).

قلت: وهذا يحقق كرمه تعالى أن علَّم بالقلم، وعلم الإنسان فضلاً منه ونعمة ما لم يعلم، فشرفه – سبحانه وتعالى – وكرمه بالعلم، وهذا من تكريم الله عز وجل لآدم – عليه الصلاة والسلام – أولاً، ولذريته من بعده ثانياً، والحمد لله رب العالمين.

ومن دلالات الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر القلم في هذه السورة الكريمة (سورة العلق) عظيم شأن القراءة والكتابة، وتعليم الإنسان ما لم يعلم، وبيان فضل الله – عز وجل – على خلقه.

ونعمة التعليم أكبر نعمة، وخص من التعليمات الكتابة بالقلم لما فيها من تخليد العلوم والمعارف ومصالح الدين والدنيا(٣).

---

(١) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٦/٣٠٥.

(٢) ينظر للزيادة في أقوال المفسرين: جامع البيان للطبري ٢٤/٥٣٣، والبسيط للواحدي ٢٤/١٧٠، وزاد المسير لابن الجوزي ٩/١٧٦، وكتاب التسهيل لابن جزي ٤/٢٠٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٣٩٨، والدر المنثور للسيوطي ١٥/٥٢٦.

(٣) ينظر: كتاب التسهيل لابن جزي ٤/٢٠٨ بتصرف يسير.

قال القرطبي (ت٦٧١هـ) في تفسيره عند هذه الآيات: «قال علماؤنا: فالأقلام في الأصل ثلاثة:

القلم الأول: الذي خلق الله بيده، وأمره أن يكتب.

والقلم الثاني: أقلام الملائكة، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال.

القلم الثالث: أقلام الناس، جعلها الله بأيديهم، يكتبون بأقلامهم ويصلون بها إلى مآربهم.

وفي الكتابة فضائل جمة، والكتابة من جملة البيان، والبيان مما اختص به الآدمي.

وقال بعض الشعراء يصف القلم:

فكأنه والحِبرُ يخْضِبُ رأسَهُ شيخ لوَصْلِ خَريدةٍ يتصنَّعُ

لِمَ لا ألاحظُه بعين جلالةٍ وبه إلى الله الصحائفُ ترفعُ[1]»

ومن الدلالات والفوائد – أيضاً – في هذه الآيات الكريمات: الإيماء إلى أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعِلم.

ومفعولا ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ محذوفان دل عليهما قوله: ﴿بِٱلْقَلَمِ﴾ وتقديره: علم الكاتبين أو علم ناساً الكتابة، وكان العرب يعظمون علم الكتابة ويعدونها من

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٧٨/٢٢، ٣٧٩ بتصرف يسير. والبيت أورده القرطبي في جامعه، بدون نسبة، وبعد البحث لم أقف على قائله.
والخريدةُ: البكر التي لم تُمَسَسْ. ينظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي (ص ٢٧٩).

خصائص أهل الكتاب.

كمـا خُـطَّ الكتـابُ بكـف يومـاً يَهـــودي يقـــارب أو يُزيـــل

ويتفاخر من يعرف الكتابة بعلمه، وقال الشاعر:

تعلمـــت بَـــا جَـــاد وآل مُرَامِـــرٍ وسـوَّدت أثـوابي ولسـت بكاتـب

وذكر أن ظهور الخط في العرب أول ما كان عند أهل الأنبار، وأدخل الكتابة إلى الحجاز حرب بن أمية، تعلمه من أسْلم بن سدرة، وتعلمه أسلم من مُرامِر بن مُرة، وكان الخط سابقاً عند حمير باليمن، ويسمى المُسْنَد.

وتعريف (الإنسان) يجوز أن يكون تعريف الجنس فيكون ارتقاء في الإعلام بما قدره الله تعالى من تعليم الإنسان بتعميم التعليم بعد تخصيص التعليم بالقلم[1].

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/٤٤٠، ٤٤١، بتصرف يسير، ونسب البيت الأول إلى أبي حَيَّة النميري، والبيت الثاني لم أقف على قائله، وينظر للزيادة: محاسن التأويل للقاسمي ٧/٣٥٧، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٩/١٧٨.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تقضى الحاجات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والرسالات، نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وبعد:

ففي خاتمة هذا البحث توصلت إلى عدة نتائج من أبرزها:

١) ورود مفردة القلم في القرآن الكريم أربع مرات على اختلاف في ألفاظها، فقد وردت بصيغة الإفراد (قلم) في موضعين، وبصيغة الجمع (أقلام) في موضعين – أيضاً – وقد تقدم ذكر الآيات القرآنية وسورها في البحث بما يغني عن إعادتها.

٢) أن القلم في القرآن الكريم يرد على معنيين:

الأول: يراد به القلم الذي يُكتب به.

والثاني: يراد به القِدْح، وهو السهم الذي يُرمى به.

٣) أصل القلم: القصُّ من الشيء الصلب، والقاف واللام والميم أصل صحيح يدل على تسوية شيء عند بريه وإصلاحه، ومن هذا الباب سُمي القلم قلماً؛ لأنه يُقلم منه، ثم شبه القِدْح به فقيل: قلم.

٤) دلالة القلم على وحدانية الله – عز وجل –وعظمته وكلماته التامة.

٥) ورود القلم في القرآن الكريم في معرض القسم به دليل على عظم شأنه، وبيان مِنَّة الله – جل وعلا – على خلقه في تعليمهم بالقلم.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة ١٤٢٦هـ.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١١هـ.

٣- أسباب النزول، لعلي بن أحمد الواحدي، تحقيق: د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥، ١٤١٣هـ.

٤- أسماء سور القرآن الكريم وفضائلها، منيرة محمد الدوسري، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٦هـ.

٥- أسماء سور القرآن الكريم: للدكتور محمد الشايع، دار كنوز أشبيليا، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.

٦- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، إشراف: بكر بن عبدالله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٧- إعراب القرآن، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٩هـ.

٨- الأعلام، تأليف: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية عشر، ١٩٩٧م.

٩- أعيان العصر وأعوان النصر، صلاح الدين الصفدي، تحقيق: علي أبو زيد وغيره، دار الفكر المعاصر، ط، ١٤١٨هـ.

١٠- إنباء الغمر بأبناء العمر، لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

١١- إنباه الرواة على أنباه النحاة، للوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١٢- أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن للباحث (بحث محكَّم في مجلة العلوم الشرعية – جامعة الإمام)، العدد الخامس، شوال ١٤٣٣هـ.

١٣- بحر العلوم: لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر: بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١٤- البحر المحيط: لمحمد بن يوسف بن حيّان الأندلسي، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.

١٥- البداية والنهاية، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق الدكتور: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

١٦- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: حسين بن عبدالله العمري، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

١٧- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق: يوسف بن عبدالرحمن المرعشلي، والشيخ جمال حمدي الذهبي، والشيخ إبراهيم عبدالله الكردي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

١٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.

١٩- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تأليف: جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

٢٠- تاريخ بغداد، لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢١- التبيان في أقسام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر «ابن قيم الجوزية»، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٨هـ.

٢٢- تذكرة الحفاظ، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٢٣- التفسير البسيط. لأبي الحسن الواحدي، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٢٤- تفسير التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

٢٥- تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٢٦- التفسير الكبير (تفسير الرازي) لفخر الدين محمد بن عمر البكري الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ.

٢٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

٢٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق الدكتور: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٢٩- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي، عناية: هشام سمير البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٣٠- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق الدكتور: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٣١- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تأليف الإمام: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٢- ذيل طبقات الحنابلة، لأبي الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: محمد حامد فقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٢هـ.

٣٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لمحمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي: بيروت، د.ط، د.ت.

٣٤- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ.

٣٥- زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني، شرح: د. زكي مبارك، دار الجيل، بيروت.

٣٦- سنن أبي داود، تصنيف أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حكم وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.

٣٧- سنن الترمذي، تصنيف الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، حكم وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.

٣٨- سير أعلام النبلاء، تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ.

٣٩- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، للإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي المشهور (بابن العماد) تحقيق: عبدالقادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط، دار ابن كثير للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٤٠- شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، تأليف العلامة صدر الدين علي بن علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ.

٤١- الصحاح في اللغة: لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين: بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.

٤٢- صحيح البخاري: لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، الناشر: دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٤٣- صحيح مسلم (المسند الصحيح). لمسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.

٤٤- طبقات المفسرين، تصنيف جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

٤٥- طبقات المفسرين، للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

٤٦- فتح القدير، تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق وتخريج الدكتور: عبدالرحمن عميرة، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ.

٤٧- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية. لسليمان بن عمر الشهير بالجمل، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.

٤٨- القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤١٩هـ.

٤٩- القول المفيد على كتاب التوحيد، شرح فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، عناية الدكتور: سليمان بن عبدالله أبا الخيل، والدكتور: خالد بن علي المشيقح، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٥٠- كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ.

٥١- كتاب القدر، لأبي بكر جعفر بن محمد الفريابي، تحقيق الدكتور: عبدالله بن حمد المنصور، أضواء السلف، ط١، ١٤١٨هـ.

٥٢- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر الزمخشري، ترتيب: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت.

٥٣- الكشف والبيان (تفسير الثعلبي) لأبي إسحاق أحمد المعروف بالإمام الثعلبي، دراسة وتحقيق: محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٥٤- لباب النقول في أسباب النزول: لجلال الدين السيوطي (ت:٩١١هـ)، دار إحياء العلوم: بيروت، د.ط، د.ت .

٥٥- لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.

٥٦- محاسن التأويل (تفسير القاسمي) لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، توزيع مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٥٧- المحرر الوجيز، لأبي محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٥٨- المدخل لدراسة القرآن الكريم، للدكتور: محمد محمد أبو شهبة، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ .

٥٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، إشراف الدكتور: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.

٦٠- مشكاة المصابيح، تأليف محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ .

٦١- مصنف عبدالرزاق، للحافظ أبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، توزيع المكتب الإسلامي، طبعة المجلس العلمي ١٣٩٠هـ.

٦٢- معالم التنزيل (تفسير البغوي) للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: مجموعة من المؤلفين، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ.

٦٣- معاني القرآن للفراء، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق الدكتور: عبدالفتاح شلبي، دار السرور.

٦٤- معاني القرآن وإعرابه: لإبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: د. عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب: بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.

٦٥- معجم المؤلفين، تأليف: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٦٦- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٨٠هـ.

٦٧- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت.

٦٨- المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني)، تحقيق: محمد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

٦٩- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبدالكريم كاظم، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٧٠- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تخريج: عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٧١- النكت والعيون (تفسير الماوردي) لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، مكتبة المؤيد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٧٢- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل باشا البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

فهرس الموضوعات:

المقدمة ١٣
خطة البحث: ١٤
منهج الكتابة في البحث: ١٥
المبحث الأول: آيات ورود القلم في القرآن الكريم، وبيان المراد بها..... ١٧
المبحث الثاني: تعريف القلم، وبيان تفاوت الأقلام في الرتب ٢١
المبحث الثالث: ذكر القلم في القرآن الكريم حين اقترعوا في شأن مريم وكفالتها ٣٠
المبحث الرابع: ذكر القلم في القرآن الكريم للدلالة على وحدانية الله وعظمته، وكلماته التامة ٣٥
المبحث الخامس: ذكر القلم في القرآن الكريم في معرض القسم به ٤٠
المبحث السادس: ذكر القلم في القرآن الكريم من باب الامتنان على الخلق٤٥
الخاتمة..... ٥١
المصادر والمراجع ٥٢
فهرس الموضوعات: ٦١